مجلة الإحياء، المجلد: 20، العدد: 24، ماي 2020، ص - ص: 373-396
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

أهمية العلم وآدابه في تفسير ابن باديس

The Importance of Knowledge and its Etiquette in the Interpretation of IbnBadis

أمينة بن قديدح [1] **أ.د/ حسين شرفه**
كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة1
مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر
amina.benkedidah@univ-batna.dz ch.hacen@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/08/28م **تاريخ القبول: 2020/02/18**

الملخص:
يُعدّ ابن باديس رائد النّهضة الإصلاحية في الجزائر، وقد استند في ذلك إلى العلم وبذل وسعه لتبصير النّاس بأهميته وآداب حملته بما كان يبثّه في دروس التفسير، وتأتي هذه الدراسة لتبرز ذلك؛ حيث أوضحت جملة من فضائل العلم التي ركّز ابن باديس على نشرها ومنها: حثّ القرآن على العلم، وكونه ميراث النبوة، وأساس الإصلاح ومصدر الأخلاق وقوام الملك وسبيل الارتقاء، ولن يتحقق ذلك إلاّ إذا توفرت جملة من الآداب في المعلّم والمتعلّم ومنها: الإخلاص لله، والاعتماد على التثبت والاستدلال، مع الحرص على التواضع والاتصاف بالرّحمة والعطف، مع بذل العلم ونشره والتزام بالصمت عند تلقيه وعدم التوقف عن طلبه.

Abstract:
Ibn Badis is considered to be the pioneer of reformist Renaissance (Nahda) in Algeria.He depended on knowledge and did his upmost to illustrate to people the importance of knowledge and the ethics of its holders through the lessons of tafseer (Quran interpretation) that he was broadcasting. The present study aims to highlight this aspect by showing the virtues of knolwedge that Ibn Badis focused on and promoted, including

[1]- المرسل المؤلف.

the following: promoting the Quran toscience, being the inheritance of prophecy, the basis of reform, the source of ethics, the strength the governance, and the way for advancement. This will not be achieved unless a set of ethics in both teacher and the learner is respected. This includes: sincerity to Allah, verification and inference, taking care to humility and compassion, while disseminating knowledge, observing silence, and continuing the request for more knowledge.

مقدّمة:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضِل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً، وبعد:

فيُعدّ الشيخ ابن باديس رمزا من رموز الإصلاح في الجزائر ورائد نهضتها في العصر الحديث، فقد تمكن من إيجاد تفاعل بين النص القرآني والمتلقي بالاعتماد على منصة إصلاحية خاصة به، تنطلق من واقع صعب وتعتمد على وسائل تعليمية بسيطة؛ حيث كانت دروس التفسير التي يلقيها بالجامع الأخضر بقسنطينة بذرة من بذور الإصلاح التي غرسها، ورغم أنّه لم يصلنا منها إلاّ اليسير، إلاّ أنّ ذلك القدر كافٍ لبيان عناية الشيخ بالعلم في مسيرته النهضويّة، وقد امتلأت المكتبات بدراسات عديدة حول منهجيته في التربية والتعليم، غير أنّ هذا البحث يأتي لبيان أهمّية العلم وآدابه في تفسيره.

ولا يخفى على المطّلع على التراث الإسلامي كثرة المؤلفات في فضائل العلم، غير أنّ الإنسان ابن بيئته ويـتأثر أكثر بلغة عصره، ويُعدّ هذا من أهم الأسباب التي دفعتني لجمع شتات هذا الموضوع في تفسير ابن باديس.

ويطمح البحث للإجابة على إشكالية أساسية هي: بيان أهمية العلم في تجربة ابن باديس الإصلاحية؟ ويتفرّع عن هذا التساؤل الأساس تساؤلات فرعية أهمها:

1- ما مفهوم العلم عند ابن باديس؟ ما أهمية العلم عنده؟ وما آداب العلم التي أشار إليها ابن باديس في تفسيره؟

وأما عن أهمّية هذا الموضوع، فتتمثل أساسا فيما يلي:

1- نيل العلم والانتفاع به يتوقف على لزوم آدابه، وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب.

2- الاشتغال بجمع كلام الأعلام في قضايا مهمّة يعود بفائدة قصوى على الباحث والقارئ.

وللإجابة عن الإشكالات المطروحة، والوصول إلى تجليّة الأهمّية المرجوّة جاءت خطة البحث كالتالي:

مقدمة: بيّنت فيها سبب اختيار الموضوع، والإشكالات التي يعالجها، إضافة إلى الأهمية التي يُبرزها، مع بيان الخطة المعتمدة؛ للوصول إلى النتائج المطلوبة.

مطلب تمهيدي: وضّحت فيه مفهوم العلم عند ابن باديس

المطلب الأول: تناولت فيه أهمية العلم في تفسير ابن باديس

المطلب الثاني: تطرّقت فيه إلى آداب العلم في تفسير ابن باديس

خلصت في الأخير إلى خاتمة ضمّنتها أهم النتائج، مع تسجيل بعض التوصيات.

مطلب تمهيدي: مفهوم العلم عند ابن باديس

قبل بيان أهمّية العلم وآدابه من خلال تفسير ابن باديس، يُستحسن بيان مفهوم العلم عنده؛ حتى يتضح المقصود من العلم الذي يدعو إليه ويُرغّب في التزام آدابه، وإليك تفصيل ذلك:

تطرق ابن باديس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، إلى مفهوم العلم، حيث قال: "والعلم إدراك جازم مطابق للواقع عن بيّنة، سواء أكانت تلك البيّنة حساً ومشاهدة، أو كانت برهاناً عقلياً كدلالة الأثر على المُؤثّر، والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البيّنة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن؛ هذا هو الأصل، ويُطلق العلم أيضاً على ما يكاد يقارب الجزم ويَضْعف فيه احتمال النقيض جداً كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: 81]، فسمى القرآن إدراكهم لما شاهدوا علماً؛ لأنّه إدراك كاد يبلغ الجزم لانبنائه على ظاهر الحال، وإن كان ثمّ احتمال خلافه في الباطن؛ لأنّه احتمال ضعيف بالنّسبة لما شاهدوه"[1].

انطلاقا من تعريف ابن باديس للعلم يتضح أنّه لا يقيّده بنوع دون آخر، بل يعتبر كل ما كان مبنيّا على الإدراك الجازم أو مقاربا لذلك فهو من قبيل العلم، والمتتبع لآثار الشيخ ابن باديس، ومنها ما جُمع في تفسيره يقف على وضوح هذا المفهوم؛ فالعلّم في منظوره شامل لكل العلوم النّافعة، سواء ما تعلّق بعلوم الدين أو علوم الدنيا أو علوم اللّسان، ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك ما يلي:

توجّه بنصيحة إلى المسلم الجزائري وكان ممّا ضمنه فيها قوله: "فاحذر كل مُتعيلم يُزهّدك في علم من العلوم، فإنّ العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عُرف منها في عد مدنيتهم الشرقية والغربية حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم"[(2)].

فكلامه هذا يبيّن نظرته الواسعة إلى مفهوم العلم، وأنّ القرآن دعا إلى كل ما يُثمر الخير للإنسانيّة، فهو بذلك يعالج المفاهيم المعوجّة التي تريد أن تُزهّد في العلوم الدنيويّة، وقد أظهر في تفسيره أهميّتها واعتناء علماء الإسلام بها أيام حضارتهم حيث قال: "بقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها؛ تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب، وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم؛ عرَّبوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا، فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم وأناروا بالعلم عصرهم ومهّدوا الطريق ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدُّوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها، وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم، ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدّتها بأمانة، وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضاً بمكتشفاته العجيبة التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده وثمرة تفكيره ونظره فيها، وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه ـ كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي ـ لتكاثر المعلومات، فإنّ المكتشفات تُضمُّ إلى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها، وهكذا يكون كل قرن ـ ما دام التفكير عمّالاً ـ أكثر معلومات ومكتشفات من الذي قبله، فإذا قلّت معلوماته قلّت اكتشافاته... وإذا كثرت معلوماته وأهمل النّظر فيها بقي حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقلّ أو تضمحلّ؛ لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنّظر زالت

من الحافظة شيئاً فشيئاً، وهذا هو طور الجمود الذي يصيب الأمم المتعلمة في أيامها الأخيرة عندما تتوافر الأسباب العمرانية القاضية- بسنة الله- بسقوطها"[3].

يتضح من هذه الفقرة - التي آثرت أن أسوقها كاملة- أن ابن باديس ينوّه بالعلوم النّافعة ويدعو إلى ضرورة تفعيلها، ويعتبر التخلي عن النّظر فيها سبيلا للجمود المؤذن بفناء العمران وسقوط الحضارات.

وإدراكا منه لما وصل إليه الغرب من التقدّم في علوم التكنولوجيا، فقد حثّ على ضرورة تعلّم لغاتهم للاستفادة من تجاربهم وفي ذلك يقول: "إنّ الذي يحمل علم المدنيّة العصريّة اليوم هو أوربا، فضروري لكلّ أمة تريد أن تستثمر ثمار تلك العقول النّاضجة وتكتنف دخائل الأحوال الجارية، أن تكون عالمة حيّة من لغات أوربا، وكل أمة جهلت جميع اللّغات الغربيّة فإنّها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدّنة التي تتقدّم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل، ممّا لا يرتاب فيه - والواقع شاهد- أنّ مقدار كلّ أمة في اللّحوق والتخلّف بركب المدنيّة بنسبة كثرة وقلّة انتشار لغة فيها من لغات الغرب"[4]. يظهر واضحا أنّ هدف الشيخ ابن باديس من وراء الدعوة إلى تعلّم اللغات الأجنبيّة إنّما هو التمكن من العلوم التكنولوجيا، وذلك باعتبار تمكن الغرب منها، وما لا يتمّ الواجب إلى به فهو واجب.

ممّا سبق يتضح أنّ مفهوم العلم عند ابن باديس يشمل كل ما يعود بالمنّفعة على الإنسانيّة بصورة عامة. فما أهمّية العلم عنده؟ هذا ما سيأتي بيانه في المطلب الموالي.

المطلب الأول: أهمية العلم في تفسير ابن باديس

المتتبع لتفسير ابن باديس يقف على عنايته في مواطن كثيرة ببيان أهمية العلم، وانطلاقا من كلامه المتفرّق في بيان ذلك يمكن حوصلته في مجموعة من النقاط، وهذا ما سأبيّنه فيما يلي:

أولا- حث القرآن الكريم على العلم:

مما يؤكد أهمّية العلم أنّ القرآن حثّ عليه، وهذا ما نوّه به ابن باديس في تفسيره واهتمّ ببيانه في مناسبات عديدة، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 4-6]، تناول بيان بعض أوجه صدق القرآن، ومنها ما تعلق بالنّاحيّة العلمية؛ إذ أُخبروا بأمور لم يكن النبيّ ليعلمها، خاصة وأنّه أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وبعدها عقد فصلا بعنوان" ترغيب" أوضح فيه عناية القرآن بالعلم وممّا جاء فيه ما يلي: "قد دعانا الله إلى العلم ورغّبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنّه خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وأمرنا بالنّظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أنّ هذه المخلوقات أسرار بيّنها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجّته العلمية على الخلق، فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم والتعمق في البحث؛ لنطّلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار؛ أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن، فنزداد علماً وعرفاناً، ونزيد الدين حجة وبرهاناً، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب الكريم المُنعم. فقهنا الله في كتابه، ووفقنا إلى الاهتداء به والسير على سننه"[5]. فالمتأمل في كلام ابن باديس يتّضح له تركيزه على بيان اعتناء القرآن بكل علم نافع، فإلى جانب الاطلاع على آيات القرآن، ذكر الاطلاع على آيات الأكوان والعمران، وجعل ذلك سبيلا للازدياد من العلم والإيمان.

_ وحين وقف مع قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 16]، ساق بعنوان "ترغيب واقتداء" ما يلي: " يذكر الله تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم وما مكّنه منه من عظيم الأشياء؛ ترغيباً لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل كل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا، وتشويقاً لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الأحياء، وبعثا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة، وحثاً لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة، فقد كان سليمان عليه السلام نبيّاً، وما كان ملكه ذلك إلاّ بإذن الله ورضاه، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأي قدوة، مثل سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين"[6]. يُلاحظ أنّ الكلام السابق ساقه للترغيب في طلب العلم، بل وفي كل ما يُحتاج إليه من أمور الدنيا، فهو بذلك يُعلي من همم المخاطبين ليُنجح مشروعه الإصلاحي القائم على التربيّة والتعليم.

ثانيا- العلم ميراث النبوة:

اهتم الإمام ابن باديس في تفسيره ببيان هذا الوجه الذي يوضّح أهمية العلم وعلوّ شأنه، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل/ 16]، قال: " من ميزة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- أنّهم يخرجون من الدنيا دون أن يَعْلَقُوا بشيء منها، فلا يورثون ديناراً ولا درهماً وإنّما يُورّثون العلم، وفي الصحيح: «إنّا معاشر الأنبياء لا نُوّرث، ما تركناه صدقة»[7]، فلم يرث سليمان من داود مالاً وإنّما ورث ما نوّه به من العلم والملك، وما دلّ عليه ذلك من النبوة، وقد خصّصه الله بذلك دون بقية إخوته"[8]. والمقصود بقوله: "وقد خصّصه الله بذلك دون بقية إخوته"؛ أي خصّ ذكر العلم على بقيّة النّعم تشريفا له وإعلاء لمكانته، وقد أورد القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال: "خُيّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه"[9]. ومع ذلك فإن شكر داود وسليمان كان مُتّجها أكثر إلى ما خصّهما الله به من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 15]، قال البيضاوي: "وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله؛ حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما"[10].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: 3]، وقف ابن باديس وقفة ليبيّن وظيفة العلماء، مبرزا أنّهم ورثة الأنبياء، مؤكدا على ماهية ما ورثوه منهم حيث قال بعنوان "اقتداء": "العلماء ورثة الأنبياء، وما ورث الأنبياء ديناراً ولا درهماً، وإنّما ورثوا العلم... "[11]. يتضح من العنوان الذي ساقه قصده من هذه الكلمات؛ إذ يسعى إلى حمل النّفوس على الإقتداء بالأنبياء ليكون لها حظ وافر من ميراث النبوة المتمثّل في العلم.

ثالثا- العلم ميزة الإنسان وهو الطريق الموصل للارتقاء:

يعتبر ابن باديس العلم ميزة الإنسان على غيره من العجماوات، وقد أوضح ذلك في مواطن عديدة منها:

عند تفسير قول سليمان عن الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: 21]، بيّن ابن باديس دقة فهم ابن عباس رضي الله عنه؛ إذ فسّر قول سليمان عليه السلام: {لأعذبنه} بأنّ المقصود بذلك نتف ريشه، ثم أوضح ـ أي ابن باديس ـ أنّه ليس في

الآية ما يُفهم منه خصوص نتف الريش من لفظ "العذاب الشديد"، وإنّما فهم ابن عباس- رضي الله عنه- وأئمة من التابعين ذلك بالنّظر العقلي والاعتبار؛ فإنّ نتف ريشه يُعطّل خاصية الطيران فيه، فيتحول من حياة الطيّر إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش. وبعد أن أوضح هذا قال: "والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حَرم إنساناً- فرداً أو جماعة- من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانيّة، وحوّله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذاب شديد، وأيّ عذاب شديد؟!"[12]. فكلامه هذا فيه بيان لمكانة العلم باعتباره ميزة الإنسان، كما أنّ فيه إشارة إلى واقعه المتمثّل في جناية الاستعمار الفرنسي بإصداره للقوانين التي تقضي بحرمان الأهالي من التعليم، فالشيخ يتخذ من دروسه وسيلة لاستنهاض الهمم حتى تتخلّص من كل القيود المحيطة بها لتسلك سبيل العلم الذي رسمه كمنهج إصلاحي تربوي لا تتحقق ميزة الإنسان إلا به، وقد ردّ على مغالطات الاستعمار الذي حاول جاهدا أن يصوّر كل حركة سخط أو تذمّر من الشعب الجزائري ضده، على أنّ الباعث عليها إنّما هو الجوع والبطالة، فكتب في ذلك مقالا بعنوان: "ليس الخبز كل ما نريد"[13]، ضمّنه أهم ما يسعى إليه الجزائريون وعلى رأس ذلك العلم الذي هو ميزة الإنسانيّة، حيث قال: "... وكما ربانا الإسلام هذه التربية من ناحية الغداء، فقد ربانا تربيّة أخرى من نواحي أخرى؛ ربانا على محبة العلم والمعرفة والرّغبة فيهما والتلهّف على ما فات منهما والاحترام لمن كان له حظ فيهما....يا قوم إننا نريد الحياة وللحياة خلقنا وأنّ الحياة لا تكون بالخبز وحده فهناك ما علمتم من مطالبنا العلميّة والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكلّها ضروريات في الحياة ونحن نفهم جيدا ضروريتها للحياة"[14]، فهو يعتبر العلم أساس للحياة وقد صرّح بذلك حين قال: " لا حياة إلاّ بالعلم ... "[15].

وأوضح في موطن آخر أنّ الحيوان يمتاز عن الجماد بالإدراك، ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل، وعقله هو القوة الرّوحية التي يكون بها التفكير؛ وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها وأدرك نسب بعضها لبعض إيجاباً وسلباً، وارتباط بعضها ببعض نفياً وثبوتاً، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة؛ ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول، فالتفكير اكتشاف المجهولات من طريق المعلومات، والمُفكر مكتشف ما دام مفكراً. ثم قال: "ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير؛ امتاز عنه بالتنقل والتّحوّل في

أطوار حياته ونُظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته؛ فمن المشيّ على الأقدام إلى التحليق في الجوّ، مثلا. وبقي سائر الحيوان على الحال التي خُلق عليها دون أي انتقال، وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها، ويستقيم تنظيمه لها تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول، وقسمي العلوم والآداب، وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام، بل قرون مدنيّتهم؛ عرّبوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا؛ فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عمرهم، ومهدوا الطريق ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها"[16]. فتأمل كلامه هذا ففيه الحثّ على العلم والتعلّم باعتباره أساس التقدّم والرّقي وبه حصول الرّفعة والسناء.

رابعا- العلم أساس الصلاح وتحقيق العزّة والأخلاق:

يعتبر الشيخ ابن باديس العلم أحد أهم ركائز تحقيق صلاح الإنسان حين ربطه بصلاح العقيدة وصلاح الخلق، وقد أشار إلى ذلك في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:25]، حيث قال: "صلاح الإنسان وفساده إنّما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، وإنّما رقيّه وانحطاطه باعتبار رقيّ نفسه وانحطاطها، وما فلاحه إلاّ بزكائها، وما خيبته إلاّ بخبثها... وصلاح القلب - بمعنى النفس- يكون بالعقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة، وإنّما يكونان بصلاح العلم وصحة الإرادة، فإذا صلحت النّفس هذا الصلاح صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلّها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النّفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة ... فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد"[17].

فصلاح العلم عند ابن باديس من أسس صلاح النّفس وبه قوامها، وفساده من أخطر أسباب فساد النّفس والبدن، وإيمانا منه بهذا المنطلق فقد دعا إلى إصلاح التعليم باعتباره أساس النهضة الإصلاحية، حيث قال: " لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم؛ فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كلّه وإذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في

العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم..."[18].

ويرى الشيخ ابن باديس أنّ استثمار ما في الكون من مدّخرات لا يتحقق إلا بالعلم، وهو ما أدركه سلفنا فكان ذلك أساس عزّتهم، ولن يتحقق للخلف عزّ إلاّ إذا سلكوا نفس المسلك، وقد استشفّ الشيخ هذه القاعدة وهو يتدبر قول الله جلّ ثناؤه من سورة النمل: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:25]، حيث كتب بعنوان: "تشويق القرآن إلى علوم الأكوان" ما نصه: "من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية، أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذّاب، يشوقنا إلى التأمل فيها والعمق في أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه، وننبعث في البحث عنه، واستجلاء حقائقه ومنافعه بدافع غريزة حب الاستطلاع، ومعرفة المجهول، وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم، ولن نعز عزّهم إلاّ إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم"[19].

فقد أرجع الإمام العزّة إلى عاملين مهمين هما: فهم الدين، وخدمة العلم، ولكي يُرسّخ هذه القاعدة في الأذهان، فقد عاد فأكدها عند حديثه عن قول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:22]؛ حيّث ساق بعنوان "عزة العلم وسلطانه" ما يلي: "ابتدأ الهدهد جوابه معتزاً بما أحاط به من العلم متجملاً بما حصّل منه، مظهراً لارتفاع منزلته به، متحصناً به من العقاب، ولم تمنعه عظمة سليمان- عليه السلام- من إظهار علمه وإعلان اختصاصه به دون سليمان"[20]. وما أورده في هذا الموضع ذكره ابن القيّم حيث قال: "إنّ سليمان لما توعّد الهدهد بأن يعذّبه عذابا شديدا أو يذّبحه إنّما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ خبرا، وهذا الخطاب إنّما جرّأه عليه العلم وإلاّ فالهدهد مع ضعفه لا يتمكّن من خطابه لسليمان مع قوّته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم"[21].

وقد أدرك ابن باديس أنّ صلاح الإنسان وعزّته لن يتحققا إلاّ بالعلم والأخلاق وهما خلاصة المهمة التي بُعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، فالتزكيّة التي تتضمن التحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الأخلاق الرذيلة لن تتحقق إلاّ بالعلم النّافع؛ إذ أنّه أساس الأخلاق، وهذا ما أكده ابن باديس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36]، حيّث ترجم لهذه المسألة بعنوان دال هو: "العلم والأخلاق"، ومما جاء فيه قوله: "العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف، فهما أعظم مما تقدمهما من حيث توقفه عليهما، فجيء بهما بعده؛ ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، ولمّا كان العلم أساس الأخلاق قُدّمت آيته على آيتها تقديم الأصل على الفرع"[22].

خامسا- العلم وحده الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات

هذا العنوان ساقه ابن باديس في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36]، ثم بيّن بعده ما يتعلق بمراتب الإدراك وهي : العلم والظّن والوهم والشك، ثمّ قال: "ولما كان الإنسان- بما فُطر عليه من الضعف والاستعجال- كثيراً ما يبني أقواله وأفعاله واعتقاداته على شكوكه وأوهامه، وعلى ظنونه حيث لا يكتفي بالظّن، وفي هذا البناء الضرر والضلال؛ بيّن الله تعالى لعباده في محكم كتابه أنّه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم، إلاّ على إدراك واحد وهو العلم، فقال تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾؛ أي لا تتبع ما لا علم لك به، فلا يكن منك اتباع بالقول أو بالفعل أو بالقلب لما لا تعلم، فنهانا عن أن نعتقد إلاّ عن علم أو نفعل إلاّ عن علم، أو نقول إلاّ عن علم، فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوي عليه عقد قلوبنا، بل علينا أن ننظر فيه ونفكر، فإذا عرفناه عن بيّنة اعتقدناه، وإلاّ تركناه حيث هو في دائرة الشكوك والأوهام أو الظنون التي لا تُعتبر، ولا كل ما نسمعه أو نراه أو نتخيله نقوله، فكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع، كما جاء في الصحيح، .بل علينا أن نعرضه على محك الفكر، فإن صرنا منه على علم قلناه مراعين فيه آداب القول الشرعية، ومقتضيات الزمان والمكان والحال، فقد أمرنا أن نُحدّث النّاس بما يفهمون - وما حدث قوم بحديث لا تبلغه عقولهم إلاّ كان عليهم فتنة- وإلاّ طرحناه، ولا كل فعل ظهر لنا نفعله، بل حتى نعلم حكم الله تعالى فيه؛ لنكون على بيّنة من خيره وشره ونفعه وضره... وإذا كان من المباحات نظرنا في نتائجه وعواقبه ووازنا بينها، فإذا علمنا بعد هذا كله من أمر ذلك الفعل ما يقتضي

فعله فعلناه وإلاّ تركناه، فلا تكون عقائدنا- إذا تمسكنا بهذا الأصل الإسلامي العظيم- إلاّ حقاً، ولا تكون أقوالنا إلاّ صدقاً، ولا تكون أفعالنا إلاّ سداداً"[23].

انطلاقا من الكلام السابق يتضح جليّا أنّ الشيخ ابن باديس جعل العلم هو الضامن لسداد الأقوال والأفعال والاعتقادات، وكلماته هذه إنّما هي توجيهات تربويّة يتخذها وسيلة لمعالجة واقع النّاس؛ حيث شاع في زمانه جُملة من الأفكار والخرافات البالية التي سيطرت على العقول.

سادسا- العلم أساس بناء المُلك:

إنّ المتابع لأحداث التاريخ الجزائري في أربعينيات القرن الماضي؛ يقف على مدى إذلال الاستدمار الفرنسي للجزائريين على جميع الأصعدة، وقد عايش ابن باديس هذه المعاناة عن كثب، فكانت كلماته التي يلقيها في درس التفسير موجّهة لمعالجة هذه الأوضاع، وقد قرّر في مناسبات عديدة أنّ العلم أهم ماُينال به المُلك وتتحقق به العزّة والتمكين، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:15]، تطرق إلى عناية القرآن بالعلم وتقديمه على سائر النّعم، حيث قال: "قد ابتدأ الحديث عن الملك العظيم بذكر العلم، وقُدمت النّعمة به على سائر النّعم، تنويهًا بشأن العلم وتنبيهاً على أنّه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنّه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنما تنبني عليه وتُشاد، وأن المُلك إنّما ينظم به ويُساس، وأنّ كل ما لم يُبن عليه فهو على شفا جُرف هار، وأنّه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها، وأن كل مملكة لم تُحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض، قال أبو الطيب المتنبي:

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الأَسَلِ ... وَالطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالْقُبَلِ

نعم إنّ محبي الممالك الصادقين في محبتها والذين تصلح لهم ويصلحون لها، هم الذين يستعذبون في سبيلها الموت، ويكون الطعن عندهم مثل القُبل على ثغور الحسان، فأما الممالك التي تبنى على السيف فبالسيف تُهدم، وما يشاد على القوة فبالقوة يُؤخذ، وإنّما أعلى الممالك وأثبتها ما بُني على العلم وحمي بالسيف، وإنّما يبلغ السيف وطره ويؤثر أثره، إذا كان العلم من ورائه، ولكن أبا الطيب- شاعر الرجولة والبطولة، شاعر المعارك والمطامع- لا يرى أمامه إلاّ الحرب، وآلات الطعن

والضرب، فلا يمكن أن يقول- وقد غمرته لذة الانتصار واستولت نشوة الغلب والظفر على لبه وخياله- إلاّ ما قال"[24].

فكلامه هذا يوضّح وبصورة جليّة أنّه يقدم العلم على القوة الماديّة ويعتبره أساسها الذي تستقيم عليه، وفي ذلك استنهاض للعزائم حتى تتغذى من لقاح العلم، فإذ تحرّر العقل تحرّر البدن.

وخلاصة هذا المطلب أنّ ابن باديس كان حريصا على بيان أهمية العلم وهو يفسر الآيات التي تشير إلى ذلك، واعتمادا عليها بيّن عناية القرآن الكريم بالعلم، وكيف جعل الاطلاع على آيات الله في الآفاق والأنفس سبيلا للازدياد من العلم والإيمان، كما حرص على تعميق الصلة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالاقتداء بهم والاشتغال بميراثهم، وأكّد على أنّ العلم أساس الرقي والتقدّم وبه صلاح الأمة ونيل الأخلاق الحسنة، وأنّه السبيل المتبع في الأقوال والأفعال والاعتقادات وهو أساس قيام الأمم والحضارات.

هذه جملة من فضائل العلم المبثوثة في تفسير الشيخ ابن باديس لخصتها في ستة عناصر متكاملة تبرز أهمية العلم في صلاح الإنسان ودوره في البناء الحضاري، ولكي تكتمل الصورة يحسن بنا الإحاطة بآداب العلم كما حددها الشيخ ابن باديس ؟ وهو ما سيأتي ذكره في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: آداب العلم

لا يمكن أن تتحقق أهداف العلم وتظهر فوائده، إلاّ إذا أحيط بجملة من الآداب، وقد ركّز ابن باديس على بيان ذلك في تفسيره، وفي هذا المطلب تأكيد على ذلك، غير أنّه تجدر الإشارة أن هذه الآداب التي ضمّنتها في هذا المطلب، منها ما ساقه ابن باديس تحت عناوين دالة عليها، ومنها ما جمعته من كلامه المتضمن لها، وكان العنوان من تصرفي، وفيما يلي بيان ذلك:

أولا- إرادة وجه الله

أول ما ينبغي أن يتحلى به الساعي في طريق العلم، الإخلاص لله تعالى؛ إذ أنّه شرط أساس لقبول أي عمل[25]، وقد بيّن ابن باديس هذا الأمر عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:19]، حيث قال: "العامل في أمر تعبدي كالصلاة والصدقة والحج والعلم،

فهذا إذا لم يرد الآخرة أصلاً فهو موزور غير مشكور، وفيه جاء حديث أبي هريرة في الصحيح قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلاّ أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد. فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار» وهذا الذي كان من هؤلاء هو الرياء وهو: أن يفعل العبادة ليُقال إنّه مطيع، وما دخل الرياء في عبادة إلا أحبطها، ولو كان قليلا؛ لحديث أبي هريرة في الصحيح: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». وإشراك غيره معه صادق بالقليل والكثير، فلا فرق بينهما في الإحباط. والعامل المرائي موزور غير مشكور"[26].

المُلاحظ أنّ الشيخ ابن باديس ركز في بيانه لخطورة الرياء على أحاديث صحيحة؛ ليكون الوقع شديدا على النفوس فتبتعد عن هذه الآفة التي تحول دون تحقيق المطلوب، ويعتبر تحقيق الإخلاص في النفوس وزرع العقيدة الصحيحة أهمّ ركيزة في البناء الإصلاحي للشيخ ابن باديس، وهذا المقصد كان واضحا في آثاره العِلمية والعَمليّة.

ثانيا- أن يتحلى ناقله بالتثبت والاستدلال مع حسن البيان

أكّد ابن باديس على هذه الصفات عند تفسيره لقول الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22]، حيث قال: "وقد كان في حسن بيانه وترتيب أخباره وبديع تهدّيه، عبارة بالغة لأولي الألباب، فقد تحصّن بالعلم ونوّه بالنبأ المتيقن وفصّل النبأ؛ فشرح حاليها الدنيوية والدينية وتنقل من تشويق إلى تشويق أبلغ منه، فكان متثبتاً فيما أخبر، بارعاً فيما صوّر، مستدلاً فيما قرّر، وفيما أنكر، بصيراً بكيد الشيطان للإنسان، متفطناً لانبناء الضّلالات بعضها على بعض، خبيراً بترتيب الأدلّة وحسن الاستنتاج، وفيما ذكر الله لنا من هذه العبر

البالغة من هذا الحيوان الأعجم حثّ لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبيّن أو نبحث وننظر، أو نستدل ونرتب ونعلّل، أن نسلك هذا المسلك"[27].

فتأمل كيف استنبط الشيخ من قول الهدهد جملة من الصفات التي ينبغي أن يتّصف بها كل ناقل؛ من التثبّت واليقين والاستدلال، وفي هذا إبراز لخاصية من خصائص التفسير الباديسي؛ حيث أنّه يغتنم أدنى مناسبة ليُوجّه ويُرشد بما يجب أن يتحلى به الفرد المسلم.

وقد أكّد في موضع آخر ضرورة الاعتماد على الدليل من القرآن والسنة والإعراض عن أدلة المتكلمين التي تتسم بالصعوبة والتعقيد، حيّث قال: "أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنّه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه، لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه، وممّا ينبغي لأهل العلم أيضاً إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلّة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم؛ ليقرّبوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته ويُعرّفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائما على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب، وأثر في النفوس. فإلى القرآن والسنة - أيها العلماء- إن كنتم للخير تريدون"[28].

من كلامه السابق يتضح أنّ الابتعاد عن الاستدلال والغوص في تأويلات المتكلمين هجر لكتاب الله وتصعيب لطريق العلم؛ فهو بذلك يعالج واقعا أثّر في الأمّة الإسلامية وأبعد الكثير عن أصل الدين وحلاوته.

ثالثا- أن يتحلى المعلم بالصبر على المتعلّم والرّحمة به:

أشار ابن باديس إلى هذا الأدب الرفيع الذي ينبغي أن يتحلى به ناقل العلم إلى غيره، حيث قال: "والعلم مستمد من الرّسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والنّذارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على الخلق والرحمة، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]"[29].

وإذ قرّر الشيخ هذا الأدب الرفيع الذي ينبغي أن يتحلّى به المعلم، فقد امتثله واقعا في وظيفته التعليميّة كما شهد على ذلك طُلاّبه؛ إذ كانت معاملته لهم معاملة

أبويّة تتميّز بالعطف والرّعاية وتوثيق الصّلة بهم وهي سمة بارزة من سمات فلسفته التربويّة، فقد كان يعيب علاقة شيوخ عصره في مختلف الكليّات الإسلاميّة بطلبتهم؛ حيث كانت تفتقد إلى الروابط المستمرّة الدائمة بين الطالب وأستاذه فيخرج بدون روح، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "... تخرّجوا في العلوم والفنون بدون تلك الروح التي ينفخها المعلّم في تلاميذه - إن كانت للمعلم روح- ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلميّة في سائر حياته"[30]. فالرّحمة والرفق والصبر على المتعلّم روح مصاحبة للمعلّم أثناء أدائه للعملية التعليمية، فإذا فقدها فقد جنى على وظيفته بالويّل والثبور وعظائم الأمور، وقد نبّه ابن السنيّ إلى ضرورة استصحاب هذا الخلق حتى حال خطئ المتعلّم؛ إذ ينبغي أن يُوجّه بالرّفق واللّين[31].

رابعا- أن يتحلى المعلم بالتواضع وعدم رد الحق لصغر قائله

من أعظم موانع العلم التكبر، وقد بيّن الله ذلك في كتابه، حيث قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، قال ابن عيينة: "أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي، وجاء عن بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر"[32]، و التكبر يوصل إلى رد الحق، كما يزرع في صاحبه العجب والغرور، وقد نبّه ابن باديس إلى هذا عندما ساق قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام، حيث قال: "وإذا كان الله تعالى قد بعث غرابًا ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه، فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدي به، تنبيهاً لنا على أخذ العلم من كل أحد والاستفادة من كل مخلوق والشعور دائماً بالنقص للسلامة من شر أدواء الإنسان: العجب والكبر والغرور ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]". ثم قال بعنوان: "أدب وإقتداء": "قد سمع سليمان هذا الهدهد وأقره عليه، فللصغير أن يقول للكبير وللحقير أن يقول للجليل: علمت ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك؛ إذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح، ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيراً جليلاً أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده، وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائده فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل؛ إذ قد يكون في أصغر مخلوقات الله وأحقرها من يحيط علماً بما لم يحط مثل سليمان عليه السلام في علمه وحكمته، واتساع مدركاته، وكفى بمثل هذا زاجراً لكل ذي علم عن الإعجاب بعلمه، والاعتزاز بسعة اطلاعه، والترفع عن الاستفادة ممن دونه"[33].

وقد أكد التحذير من العجب والغرور عند تفسيره للمعوذتين، حيث قال: " إنّ من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يسول له أن ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة الله بصاحب القرآن، ولطف تأديبه له وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه؛ لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه، وينبهه إلى أن في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلى الآن، وهي: أنّه مهما امتد في العلم باعه، واشتد بالحكمة اطلاعه، فإنّه لا يستغني عن الله، ولا بد له من الالتجاء إليه، والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار وحسد الحاسد، وكفى بهذه التربية قامعاً للغرور؛ وإنّه لشر الشرور"[34]. فابن باديس إذ يركز على التواضع والتحذير من نقيضه سائر على ما قرّره العلماء من قبله، فهذا ابن عبد البر عقد في جامعه فصلا في مدح التواضع وذم العجب وطلب الرئاسة، وأن من أفضل آداب العالم تواضعه وترك الإعجاب لعلمه ونبذ حب الرئاسة عنه[35].

خامسا- أن يبذل المتعلم ما علمه:

حرص ابن باديس على زرع هذا الأدب في النفوس حتى ينتشر الخير، ففي معرض بيانه لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:15]، قال: "هذا نبينا صلى الله عليه وسلم نور وبيان، وهذا كتابنا نور وبيان، فالمسلم المؤمن بهما المتبع لهما له حظه من هذا البيان، فهو على ما يُسِّر له من العلم ولو ضئيلا يبينه وينشره؛ يّعرّف به الجاهل ويرشد به الضال، وهو بذاك وبعمله الصالح كالنّور يشع على من حوله، وتتسع دائرة إشعاعه وتضيق بحسب ما عنده من علم وعمل، فعلى المسلم أن يعلم هذا من نفسه ويعمل عليه، ويضرع إلى الله دائما في دعواته أن يمده بنوره... "[36]. والمتتبع لآثار الشيخ يقف على وضوح هذا المقصد في تعليمه؛ إذ كان يركز على ضرورة تبليغ العلم ولو كان قليلا، ففي معرض شرحه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والدخول على النّساء». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الْحَمْوُ؟ قال: «الْحَمْوُ الموت»[37]، قال ابن باديس بعد بيانه لما تضمنه من معاني: " فحق على من قرأ هذا الحديث أن يُعلّمه للنّاس وينشره فيهم ويحثّ نفسه وإياهم على العمل به والسير على أدبه، ولا يستعظمنّ ما يراه من جهل، فإنّه ما جاء إلا من قلّة نشر العلم فإذا نشر العلم - ولو كان في أوله قليلا- فإنّه لا يلبث بإذن الله أن يصير كثيرا"[38].

سادسا- حسن الإنصات والاستماع:

تناول ابن باديس عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114] جملة من الآداب؛ حيث أوضح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بعثه الله معلماً وكان أيضاً متعلماً: علّمه الله بلسان جبريل، فكان متعلماً عن جبريل عن رب العالمين، ثم كان معلماً للنّاس أجمعين، فللعلم شرف عظيم. ثمّ أكّد بعد ذلك أن لهذه الرّتبة التي يحظى بها التعلم والتعليم آدابها، وكان محمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق في آدابهما؛ بما أدبه الله وأنزل عليه من الآيات فيهما، وشرع في ذكر بعض من ذلك، وكان هذا أول أدب تناوله ابن باديس في تفسيره لهذه الآية، حيث قال مستدلا له: " كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه جبريل - عليه السلام- بالوحي عليه قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يُبلّغه كما أُنزل عليه؛ ولأنّ تعلّق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه، يدعوه إلى النّطق به، لما بين القلب واللّسان من الارتباط؛ ولأنّ شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجّل بقراءته، غير أن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء، تمنع تمام الوعي؛ لأنّ عمل اللّسان بالنّطق يُضعف عمل القلب بالوعي والحفظ؛ فلذا نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يعجل بقراءة القرآن عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضى ويتمم إليه وحيه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾...".

ثم بيّن أن هذا الأدب أدب عام، حيث قال: "إنّما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنّما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد، فكما كان على المُتعلّم أن يسكت حتى يفرغ مُعلّمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه المعلم، حتى يفرغ المعلم من إلقائه، كذلك على المُناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجّته، وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه، ثم يبدي رأيه فيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك، فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم المناظر فيرد ويقبل، وفهم القارئ فيعرف ما يأخذ ويترك، وفهم السامع لتحصل فائدة الاستماع، وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم، وفوات القصد من المناظرة والقراءة أو الكلام"[39].

فانظر كيف يستنبط ابن باديس من الآية الكريمة هذا الأدب المهم في تلقي العلم، ثمّ تأمل كيف توسّع في مدلوله ليشمل المتعلم والمناظر والسامع ولم يحصره في

جانب معيّن، وتلك إحدى سمات المنهج التربوي لدى الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى.

سابعا- دوام التعلم للازدياد من العلم

صرّح ابن باديس بهذا الأدب في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، حيث قال: "يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمّل، فلن يزال بحاجة إلى العلم، ولن تزال أمامه فيما علمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبداً أن يتعلم وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الأعظم- أن يطلب من الله- وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم- أن يزيده علماً فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]"[40].

فإذا كان هذا شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم خلق الله تعالى، فما الظن بغيره، فلا شك أنهم أحوج إلى الاستزادة من العلم، فالعلم بحر لا ساحل له، وصدق الله القائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85].

وليبين ابن باديس أهمية الاستزادة من العلم، فقد زاد المسألة توضيحا حين أكد على ضرورة الاستمرار في طلبه، وبيّن مضار الانقطاع عنه؛ حيث قال: " ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصّلوا عليه من علم عن العلم، فوقف بهم عند ما انتهوا إليه، فجمدوا وأكسبهم الغرور بما عندهم، فتعظموا وتكلّموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى النّاس شر فتنة وأعظم بلاء فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسه من ابتلى بهذا المرض، فيقلع عن جموده وغروره، ويزداد مما ليس عنده علم ما لم يعلم، ويحذر من أن يقف على طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علمًا بما ييسر له من خزائن رحمته، وما يلقيه في قلبه من نور، وما يجعل له من فرقان، وما يوفقه الله إليه من أصل ذلك كله، وهو تقوى الله والعمل بما علمه"[41].

فالانقطاع عن العلم - حسب ابن باديس- يُورث صاحبه الجمود والغرور، ويكون سببا في الضلال والإضلال حين يتكلم فيما لا يعلم؛ وتلك إحدى المصائب التي تحلّ بالأمة بسبب أنصاف أو أشباه المتعلمين، وفي هذا يقول المناوي: " إنّ من شرع في حقائق العلوم ثم لم يبرع فيها، تتولد له الشبه وتكثر عليه فيصير ضالا مضلا، فيعظم على النّاس ضرره، وبهذا النّظر قيل نعوذ بالله من نصف فقيه أو متكلّم"[42].

وخلاصة هذا المطلب؛ أن الشيخ ابن باديس لم يقتصر على بيان أهمية العلم للترغيب في تحصيله فحسب، بل أحاطه بجملة من الآداب التي من شأنها أن تُرسّخ ذلك العلم ويؤتي أكله، وقد استنبط تلك الآداب من كتاب الله تعالى وهو يفسر آياته الكريمة وينزلها على الواقع في إطار مشروعه الإصلاحي والتربوي الذي تعهد بإحياء الأمة عليه.

وقد تلخّصت تلك الآداب في سبعة عناصر هي: أن تتعلق القلوب بالله، وأن يتحقق المعلّم فيما ينقله لغيره، مستندا في ذلك إلى الحجّة والبرهان معتمدا على حسن البيان، متصفا بالصبر واللّين، متواضعا يقبل الحق من الصغير والكبير، محبا للخير، متميّزا بحسن الإنصات، ناشرا للعلم مستمرا في تحصيله.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة يمكن استخلاص النتائج التالية:

- مفهوم العلم لدى ابن باديس واسع يشمل كل علم نافع.
- يرى ابن باديس أنّ التخلّي عن العلوم الكونيّة سبيل للجمود المُؤذن بفساد العمران وسقوط الحضارات.
- رغّب ابن باديس في تعلّم اللّغات الأجنبيّة للاستفادة من العلوم التكنولوجيا.
- حرص ابن باديس على الترغيب في العلم والحثّ عليه عن طريق نشر فضائله، ومن ذلك:
- أنّ القرآن رغّب فيه، وأنّ العلم ميراث النبوة وأساس الإصلاح ومصدر الأخلاق، ومنطلق الرقيّ وقوام الملك وهو المُتبع في الأقوال والأفعال والاعتقادات.
- إلى جانب حرص الشيخ ابن باديس على بيان أهمّية العلم، فقد نوّه بالآداب التي ينبغي الاتصاف بها، ومن ذلك:
- الإخلاص لله في تحصيله وبذله، والحرص على التثبّت في النّقل مع الاستدلال وحسن البيان، إضافة إلى الصبر والرّحمة بالمتعلّم، وقبول الحق مهما كان قائله، والحرص على نشر العلم ولزوم الصمت عند تلقيه والمواصلة في تحصيله.
- اعتمد ابن باديس في بيانه لأهمية العلم وآدابه على منهج استنباطي، كما حرص على ربط الآيات بالواقع.

- حرص ابن باديس على بيان أهمّية العلم مع التركيز على آدابه، ينطلق من مشروعه القائم على التربيّة والتعليم، فالعلم لوحده لا ينفع إذا لم يتجمل صاحبه بالآداب الرفيعة والأخلاق الحسنة.

وفي الأخير أقترح أنّ يُتوسّع أكثر في هذا الموضوع ليتمّ استقصاؤه من جميع آثار الشيخ ابن باديس؛ حتى تعمّ الفائدة وتتّضح منهجيّته التي سلكها في ترغيب الأمة في العلّم، فيُقتدى به في ذلك.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد ابن السني (ت: 364هـ)، رياضة المتعلمين، ح: نظام يعقوبي، دار النوادر، سوريا، ط 1، 2015م

2- أحمد الثعلبي (ت: 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: مجموعة من الباحثين، دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية، ط1، 1436 هـ - 2015م.

3- إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ - 1999 م.

4- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، ط:5، 1422هـ -2001.

5- زين الدين المناوي (ت: 1031هـ)، فيض القدير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 1، 1356هـ.

6- شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تفسير القرطبي،تح: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964 م، ج 17، عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، تح: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط 1، 1388هـ - 1968م.

7- عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط 1، 1403هـ - 1983م

8- عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ - 1995م.

9- عيسى عمراني، المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، دار الهدى، الجزائر، ط 1، 2015.

10- محمد ابن القيم الجوزية (ت: 751هـ)، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تح: عبد الرحمن بن قايد،دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432 هـ
11- محمد الدراجي، عبد الحميد بن باديس، دار الهدى، الجزائر، ط:1، 2015.
12- نصر الدين البيضاوي (ت: 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1418 هـ.
13- يوسف بن عبد البر (ت: 463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تح: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 1، 1414 هـ - 1994 م.

الهوامش:

(1) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ-1995م، ص 100.
(2) عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس،تح: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط 1، 1388هـ- 1968م، ج 3، ص 178.
(3) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 102.
(4) محمد الدراجي، عبد الحميد بن باديس، دار الهدى، الجزائر، ط 1، 2015، ج 2، ص 296.
(5) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 160.
(6) المصدر السابق، ص 259.
(7) أخرجه مسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» رقم 56 - (1761).
(8) عبد الحميد بن باديس ،مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 256.
(9) شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964م، ج 17، ص 300.
(10) نصر الدين البيضاوي (ت: 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1418هـ، ج 4، ص 156.
(11) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 296.
(12) المصدر السابق، ص 269.
(13) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، ط 5، 1422هـ-2001م، ص 422.
(14) عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج 2، ص 179.

(15) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 343.
(16) المصدر السابق، ص 101.
(17) المصدر نفسه، ص 73.
(18) عبد الحميد ابن باديس، آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج 3، ص 217.
(19) عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 276.
(20) المصدر السابق، ص 271.
(21) محمد ابن القيم الجوزية (ت: 751هـ)، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تح: عبد الرحمن بن قايد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط 1، 1432هـ، ج 1، ص 173.
(22) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 99.
(23) المصدر السابق، ص 103.
(24) المصدر نفسه، ص 254.
(25) إلى جانب الإخلاص، تشترط المتابعة، فعن الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه... والخالص: إذا كان لله، والصّواب: إذا كان على السنّة. ينظر: أحمد الثعلبي (ت: 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: مجموعة من الباحثين، دار التفسير، جدة، السعودية، ط 1، 1436هـ-2015 م، ج 9، ص 356.
(26) عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 54.
(27) المصدر السابق، ص 278.
(28) المصدر نفسه، ص 343.
(29) نفسه، ص 296.
(30) عيسى عمراني، المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، دار الهدى، الجزائر، ط 1، 2015، ص 177.
(31) أحمد ابن السني (ت: 364هـ)، رياضة المتعلمين، تح: نظام يعقوبي، دار النوادر، سوريا، ط 1، 2015م، ص 139.
(32) إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420هـ-1999م، ج 3، ص 475.
(33) عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع السابق، ص 271.
(34) المصدر السابق، ص 370.
(35) يوسف بن عبد البر (ت: 463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، ح: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط:1، 1414 هـ - 1994 م، ج 1، ص 562.
(36) عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، م.س ، ص: 330.
(37) أخرجه البخاري، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم 5232.

(38) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير،مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط 1، 1403هـ-1983م، ص 177.

(39) عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، مرجع سابق، ص 344.

(40) المصدر السابق، ص 344.

(41) المصدر نفسه، ص 345.

(42) زين الدين المناوي (ت: 1031هـ)، فيض القدير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط 1، 1356هـ ، ج 3، ص 377.